الشيخ حداد ...

قصة بقلم عثمان سعدي

ـ انزل ... الخط ...

هكذا كان الشيخ حداد ينهر حصانه وهو يضغط على يد المحراث بكل ما ابقت له سنواته الستون من قوة ، فتنغرز السكة في الارض لتخرج من جوفها ترابا بنيا باهتا ، مختلطا بحصى دقيق ، وتلقيه على جوانب المحراث فيغطي حبات الشعير المنتشرة ، بعد ان يحدث قرقعة منسجمة ، تعودت عليها آذان فلاحي « كارة تازبنت » .

وبفضل تجارب عمر كامل صارت ليد الشيخ حداد خبرة تمكنها من جذب المحراث بسرعة قبل ان تشتبك السكة « بصفية » (١) من هذه الصفيات التي تهددها في كل لحظة بالكسر ، وتنهك قوى الحيوان الساحب للمحراث .

وجذب الشيخ المحراث بمهارة فلمع سن السكة ـ الذي صقله احتكاكه المزمن بالتراب والحصى ـ مع أشعة الشمس ، ملتصقا برأس صفية ، وصاح الشيخ حداد :

ـ يا لهذه الارض ... ويا لهذه الصفيات الملعونة التي لا تنتهي ، لقد اصبح يكون ما جمعناه منها ـ منذ ان بدأ جدي يعمل هنا ـ جدرانا تحيط بقطعة الارض من كل ناحية .. الان فقط صدقت ما كان يردده ابي رحمه الله ـ : « ان هذه الارض تنبت الصفيات كما تنبت الزرع والعشب » ...

وكان الشيخ حداد يمقت هذه الصفيات لانها تتسبب ـ دائما ـ في اعوجاج الخط ، وانهاك قوى الحيوان ، وهما خطآن يتجنب كل فلاح مخلص الوقوع فيهما . والعبارة التي لا تفارق لسان الشيخ ـ اثناء مراقبته لعمل ابنائه في الحقل ـ هي : « يجب ان يكون خط الحرث معتدلا اعتدال انبوب البارودة ، والا صار عبث صبيان . »

واعتدال الخط له مميزات عدة ، اهمها : تغطيته للبذر تغطية كاملة حتى لا تلتقطه طيور الخريف الجائعة ، او تكتسحه سيوله الجارفة ، باستخراج جوف الارض الى سطحها واعادة قشرتها الخارجية الى الجوف .

وسنوات الشيخ حداد الستون علمته ان الحيوان كالانسان لا تجدي معه سوى الوسائل التربوية السليمة . فكم من مرة صاح في احد ابنائه الموضوع تحت رقابة بصره الحاد بقوله : « عود الحيوان على اعتدال الخط يوفر عليك وعليه اتعابا جمة ... لا تتسامح مع الحيوان في الخروج على الخط .. الا تعرف المثل القائل : من شب على شيء شاب عليه ؟ طبقه على حيوانك تطبقه على ابنك .. » او يقول له : « عندما كنت شابا مثلك كان الحيوان هو الذي يقوم بكل شيء ، اما انا فعملي كان لا يتعدى بذر البذار او وضع يدي على المحراث وتحسس سير السكة في جوف الارض ... »

(١) صخرة مستطيلة ورقيقة . والكلمة مستمدة من اصل عربي: «صفوان»

اما المحافظة على الحيوان فهو امر طبيعي عند فلاحي « كارة تازبنت » لانه يؤلف الشرط الاساسي لحياته ، فاذا ما توفي حصان او بغل لاسرة من اسر القرية حزنوا عليه ، واذا ما ولدت فرس او بقرة اجتمع افراد الاسرة مع جيرانهم حول مثارد العصيدة . واذا ما اشترى رب البيت فرسا جديدة تدهن ناصيتها زوجته بالسمن ، وتقام وليمة يدعى اليها الاقارب والجيران .

اذا فثورة الشيخ حداد على هذه الصفيات الملعونة امر طبيعي ، لان اصطدام السكة بواحدة منها يجعل الحيوان المنطلق امام المحراث يتوقف فجأة فتزعزع هذه الصدمة الفجائية ضلوعه...

وكان عمار الصغير ـ حفيد الشيخ ـ يتعقب خطى جده في «قشابيته» (١) الصوفية رابطا قلنسوتها بخيط حول رقبته ، ورجلاه الصغيرتان ملفوفتان بخرق جمعها من بقايا قميص امه البالي ، ومدسوستان في «كرك» (٢) صنعه له جده من جلد جملهم الاصفر الذي رماه الجنود الفرنسيون بالرصاص . اما ساقاه فهما معصوبتان بعصائب صوفية خضراء ، ارسلها له ابوه من معاقل جيش التحرير .

وكان عمار الصغير ينحني بين آونة واخرى ، ويدخل يده الصغيرة ـ التي احال البرد بشرتها الى لون توت العليق ـ في قاع اخدود الخط ليلتقط حبة « التالغودة » ويضعها في مخلاة معلقة في رقبته . والتالغودة نوع من جذور نبات بري شبيه بالبطاطه ، اعتاد سكان « تازبنت » ان يلجأوا اليه كلما عضهم الجوع اومستهم الحاجة . فيجمعونها وبعد ان يقشروها ويفتتوها ويعرضوها للشمس لتجففها يطحنونها ويصنعون من دقيقها الكسرة والكسكسي(٣)

وانحنى عمار الصغير والتقط حبة « تالغودة » ، وبعد ان تأملها جيدا قال لجده :

ـ جدي

ـ نعم يا بني

ـ ما لون التالغودة اصفر في هذه السنة ؟

ـ لانها لم تأخذ كفايتها من الماء .. انها كالانسان الذي اصفر وجهه على اثر جوع ملح او مرض شديد .

ـ ذكرتني يا جدي ... هل صحيح ما قاله ذلك الجندي الفرنسي عندما رأى صفرة عيني وبشرتي ، لقد قال لزميله : « ان التالغودة هي السبب في هذه الصفرة » .

ـ نعم يا بني ...صحيح ...

(١) عباءة صوفية لها قلنسوة يلبسها الفلاحون في الشتاء

(٢) كرك : حذاء يتخذه الفلاحون في الشتاء من جلود الجمال والبقر .

(٣) اكلة شعبية في المغرب العربي

ـ سوف نكف عن اكل « التالفودة » بمجرد ان يرجع اعمامي وابـي من جيش التحرير ... اليس كذلك يا جدي ؟

وعلت سحابة سوداء وجه الشيخ حداد ، وعض على شفته السفلى ، ثم اجاب حفيده وهو يجهد نفسه في تكلف لهجة طبيعية :

ـ لا يا بني لا يمكن لنا ان نكف عن اكل « التالفودة » والرجوع الى الحياة الطبيعية الابعد ان يخرج المستعمرون الفرنسيون من بلادنا .

ـ آه يا جدي .. لو كنت كبيرا لذهبت انا ايضا لقتل هؤلاء الفرنسيين الانـذال ...

ـ سوف تكبر يا بني ...

✶

كان سكان قرية « تازبنت » ـ منذ سنتين ـ يغبطون الشيخ حداد على النعمة التي أسبغها عليه الله : لقد رزق باربعة اولاد بلغ اصغرهم سن الرشد وتزوج ثلاثة منهم وتحملوا كلهم مسؤولية اعاشة الاسرة وطلبـوا من ابيهم العجوز ان يركن الى الراحة ويتفرغ لسجادته ومسبحته . الا ان الشيخ حداد لم يطبق طلب ابنائه تطبيقا كاملا ، فهو وان كف عـن القيام بعمليات الحراثة والحصاد والدرس والرعي الا انه لا زال يتتبع كل ما يجري خارج البيت وداخله باهتمام : فيعالج الحيوانات ويعتني بها ، ويرفع البرادع والفرارات ، ويقوم بتربية احفاده ، ولحم صفائح الماء ، وصناعة « الاكراك » ، ومراقبة الاطفال وهم يرعون الخراف المفطومة ـ حديثا ـ حول القرية في فصل الربيع .

ان طبيعة الشيخ حداد الحازمةالجدية لم تسمح له ـ حتى في ايـام شيخوخته ـ ان يركن للراحة داخل المنزل لانه يؤمن بان الجدران والسقف لا تصلح في النهار الا لايواء النساء ، اما الرجل فمكانه في الحقل او الرعي او المورد ، او السوق .

اما اذا لم يجد الشيخ حداد عملا يقوم به ـ وهذا نادرا ما يقع ـ فانه يشارك شيوخ القرية في مجالسهم الممتعة التي يستعرضون فيها ذكريات شابة من خلال ضباب شيخوخة مستنيرة ، ويلهجون بذكر كدهم الماضي وراء لقمة العيش بالسنة شاحبة لم تعد ترتكز اجراس الفاظها على الاسناد المهدمة ...

وبعد مضي ستة اشهر من اندلاع ثورة اول نوفمبر ، جمع الشيخ ابناءه الاربعة وقال لهم :

ـ ابنائي لقد حان اليوم الذي كنت انتظره وكان ينتظره ابي من قبل لقد ساهم جدكم في حرب المقاومة ضدجيش الاحتلال ، وكان جنديا في ثورات عديدة ، والان حان الوقت لتبلغوا الرسالة التي شرع فيهـا اجدادكم ولتطردوا هؤلاء الفرنسيين المستعمرين من بلادنا . يجب ان تنضموا كلكم الى جيش التحرير .

وقاطع خالد ـ الابن الاصغر ـ اباه بقوله :

ـ لكن اذا ذهبنا كلنا الى جيش التحرير فمن الذي يحرث الارض ويحصد زرعها .؟

ـ اين هي هذه الارض التي تتحدث عنها يا خالد ؟ اتسمي هـذه الصخور وهذا الحصى الممتزج بكمية ضئيلة من التراب ارضا زراعية .. انها عبارة عن احواض من البصل كما كان المرحوم والدي يسميها . ان ارض جدي التي طرده منها الفرنسيون توجد هناك قرب مدينة « البيضة » بين ايدي « الكولون » ...

ـ لكن ، من يعول هؤلاء الاطفال الصغار يا ابي ؟...

ـ ليسموا أفضل منابناء الشهداء ، اسمعوا يا اولاد .. يجـب ان تجتمعوا مع شباب القرية وتفتحوا واجهة جديدة « بجبل العنبة » ، امـا انا فسأبقى هنا احرث الارض واحصد زرعها .

ـ لكن من يسقي الماء ويحطب الحطب يا ابي ؟

ـ النساء... نعم النساء ... آن لهن ان يخرجن من عزلتهن ويرفعن حزمة الحطب على ظهورهن ، ويجلبن براميل الماء من « ما الفضباب » او « المقاليب » .

✶

وتوقف عمار الصغير فجأة عن اقتفائه لاثار جده والتقاطه لحبـات « التالفوده » وصوب بصره نحو الطريق المؤدي الى القرية وهو يضع يده الشاحبة فوق حاجبيه ليدرأ عن عينيه اشعة الشمس . ثم صاح :

ـ جدي ... جدي... ها هي « يمينة » قادمة .

ـ هل انت جائع يا عمار ؟

ـ نعم يا جدي.

ـ يجب ان تتعلم الصبر يا عمار .. الصبر على الجوع ، والعطش ، والعري ، الصبر على كل شيءتكرهه النفس .. يجب ان تروض نفسـك على الصبر يا عمار ، وتعمل بجد على التخلص من هذه الآفات ...

ـ جدي هل صحيح ان المجاهدين لا يأكلون ؟ لقد قالت لي جدتي « غزالة » ان الله يطعمهم من عنده دون ان يحتاجوا الى طعام .

ـ لا يا عمار ان المجاهدين بشر مثلنا يجوعون ويأكلون الطعـام ، ويشربون الماء ، الا انهم اكتسبوا قدرات على الصبر وتحمل الشدائد لا توجد عندنا نحن العاديين .

ـ لقد حكى ابي لامي بانه استمر ثلاثة ايام دون طعام ، وكـان غذاؤه الوحيد « السليخ والتاكة » (1)

ـ نعم يا بني ان المجاهدين تعبوا كثيرا في الايام الاولى للثورة ، امـا اليوم فقد اصبحوا لا يحتاجون الى لقمة العيش .

ـ جدي ... جدي... ان « يمينة » تبكي ، لا بد وان احدا ضربها .

وتنحى عمار عن الخط وخلع المخلاة من رقبته، ثم ذهب يجري لملاقاة اختـه .

وصاح الشيخ حداد للحصان ، فتوقف فجأة وكانه كان ينتظر ـ منـذ دهر كامل ـ هذا النوع من الصياح . وبعد ان ربط أعنة الشكيمة فـي يد المحراث ، ذهب الى طرف الحقل المحروث وحمل من هناك مخـلاة صفراء جديدة وعلقها في رأس الحصان . ثم اتجه الى حفيدته .

كانت « يمينة » لابسة « الكرك » صغير ، وملفوفة في « مخنوق » امها الصوفي الاسود ذي الخيوط الحريرية البيضا ، ورابطة رأسـها بمنديل حريري اصفر ، ومحيطة رقبتها « بكوفية » صوفية مشبوكة « بخلالة » فضية صغيرة ، وكانت تلهث من شدة التعب . وقبل الشيخ حداد حفيدته وهو يقول :

---

(1) السليخ : هو الجزء الابيض اللين في قشرة شجر الصنوبـر .
التاكة : ثمار شجر شوكي له مذاق لذيذ

ـ مالك تبكين يا « يمينة » هل بردت ؟

واجابت « يمينة » بصوت تخنقه العبرات والزفرات :

ـ لا يا جدي ان البرد لا يبكيني

ـ لماذا تبكين اذا ؟

واسرع عمار فاجاب عنها :

ـ انها تبكي لان جنود الفرقة الاجنبية الفرنسية اغتصبوا اليوم خمس شياه من « بوجمعه »

وقطب الشيخ جبينه وارسل زفرة طويلة تزعزعت لها ضلوعه النحيلة . ثم قال :

ـ الم اقل له ستين الف مرة .. الا يبتعد بالقطيع مسافة كبيرة عن القرية ؟

واجابت « يمينة » بسرعة وهي تبرر موقف ابن عمها الراعي :

ـ لا يا جدي ، لقد اغتصبوها منه في « العنكوب القصير » .

ـ ما هي الشياه التي اغتصبت ؟

ـ الكبش الادرع ، والنعجة الحمراء وابنتها ، مع جدعين آخرين .

وتكلف الشيخ حداد ابتسامة مقتضبة ثم ضم حفيدته ـ التي اجهشت بالبكاء ـ الى صدره وهو يقول :

ـ لا تبكي يا بنيتي ... سوف نطرد الفرنسيين من بلادنا ونشتري احسن منها ...

ولم يتمالك اعصابه فراح يصيح والشرر يتطاير من عينيه الصغيرتين :

ـ يا لهؤلاء الفرنسيين الانذال ، قتلوا كل جمالنا ، ولم يبقوا لنا من قطيع مئة راس سوى عشرين شاة ... لقد احرقوا الزرع في الحقول ... والسنابل في البيادر ... حتى الكلاب قتلوها ، انهم اوغاد .. اوغاد جبنـاء !

وانقطعت « يمينة » فجاة عن البكاء ثم قالت بصوت حازم ينم عن ايمان عميق بما تقول :

ـ سوف ابعث الى ابي واخبره بان الفرنسيين اخذوا شاتنا الحمراء وكبشنا الادرع : والتفت الشيخ حداد الى حفيدته ثم قال لها في لهجة عاتبة :

ـ لا تقلقي اباك بهذه السفاسف يا « يمينة »

ـ انه هو الذي قال لي عندما جاء يقضي اجازة العيد : « اخبريني يا امونتي كلما اغتصب الفرنسيون شاة من شياهنا ، وانا اضمن لك قتل احد جنود الاستعمار في مقابلها » ...

وجلس الشيخ على غرارة البذر ، والتصقت « يمينة » بجانبه الايسر وعمار بجانبه الايمن كما يلتصق الفرخان بريش امهما .. ووجد الصغيران في جذع جدهما النحيل ملجأ من رياح الخريف الشمالية التي لا ترحم.. لقد كان احفاد الشيخ الصغار يهرعون الى جدهم ، كلما اشتاقوا الى آبائهم وتذكروهم ، ويطفئون لهيب هذا الشوق بعبرات يسكبونها على شعيرات لحية جدهم البيضاء ، وكان الشيخ حداد يدرك ما يختلج في نفوس احفاده الصغار فيضمهم الى صدره ويدغدغهم ، ويقص عليهم هذه القصص المضحكة الغريبة التي لا يعرفها سوى امثاله من شيوخ القرى.

ووضع الشيخ حداد الربطة التي احضرتها « يمينة » بين يديه ، وفك عقد المنديل الاحمر الاربعة وبسطه على الارض ، ثم اخرج قرطاسا من الورق وبعد ان نشر تلافيفه بدت « خبزة » كبيرة من كسرة القمح المبسه بالسمن والتي يسميها الفلاحون ـ هنا « بالرخساس »

وتحسس الشيخ حداد الكسرة الحمراء ثم قال لحفيدته :

ـ انها لا زالت ساخنة يا « يمينة » ...

ـ نعم يا جدي لقد قطعت المسافة جريا، حتى اضمن وصول «الرخساس» اليك ساخنا ، لانه اذا برد بطلت لذته.

ونظر الشيخ حداد الى « يمينة » في حنان وشفقة ، ثم قال وهـو يضمها الى صدره :

ـ بارك الله لنا فيك يا « امونة » ، لقد قلت لك مرارا : « لا ترهقي نفسـك».

ـ لا يا جدي ، ان الجري لا يرهقني ، ولو كان في مقدوري ان اتعقب المحراث بدلك لفعلت ...

وضم الشيخ حداد حفيدته الى صدره وهو يخفي عينيه المغرورقتين في شعرها الاسود المتدلي على ظهرها ، وراح يدعو الله في اعماقه ان يحفظ اباها لها ، ويرعى كل مجاهد في جيش التحرير ...

الكويت — عثمان سـعدي

قريبا — دار الآداب تقدم

حلقات اخرى من

سلسلة الثقافة القومية

يشارك في تاليفها عدد كبير من ادبـاء العروبـة

منهم

الدكتور عبدالله عبد الدائم ـ الاستاذ رئيف خوري

الدكتور نور الدين حاطوم ـ الاستاذ شاكر مصطفى

انتظر هذه الحلقات الهامة